

تحقيق ذ. محمد الراضي كنون

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله على إفضاله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

أما بعد، فإني أيها السادة الذين ارتقوا من الترقى مراقي المجادة أعد نفسي معكم سعيدا بما ساقني إليه سائق التوفيق للحضور بناديكم الرفيع الذي ازدهر بكم، وشملت العناية الجميع، ولم يكن بحسباني أن أتجرأ على إلقاء كلمتي بين يديكم، مع أن المعارف الكافية لديكم، ولكن لحسن ظن من اقترحها علي أجبته إجابة راغب في جبر الخواطر، وإن كان في غنى عما لدي، وقد انشرح صدري بما شاهدته من إقبال الشيبية الجزائرية على فنون الأدب وأهله، وانعطفهم نحو محبيهم بقلب وقالب، خصوصا من تقرب إليهم بأدنى سبب، أو كان من ذوي الفضل والنسب، فهم له محبون، وبالإحسان إليه مغبوطون، وذلك من كمال فضلهم، ولا يعرف الفضل لذي الفضل إلا ذوهه.

ساداتي : إني قد كنت عزمت على التتصل من إلقاء خطابي في مجمعكم الذي أخذ فيه مني الدهش حظه، بما أتلوه من سطور الذكاء الذي تشعشت أنواره فيكم، ولاحت على أسرة وجوه الحاضرين منكم بما ينبئ عن معلوماتكم التي تستوجب إطراق مثلي برأسه أمامكم خجلا، فإن منكم الأساتذة الأعلام، ومنكم النوابغ الذين لهم في مراقي المعارف والعلوم نشرت الأعلام، ولكن لاعتمادي على ما لديكم من سلامة الصدور سأعرض عليكم من بضاعتي المزجاة ما أعده من السوانح التي لم أستعد لصيدها، فجاءت عفوا من غير تأنق في الخطاب، فإن صادفت عندكم قبولا فهو غاية المقصود، وإلا فلتعدوها من سقط المتاع.

واعذروني لقد حيرني المقترح علي في إلقاء هذه المسامرة حين خيرني في الموضوع الذي أطرق بابه، في هذا الموضوع ليوافق مشربكم الذي استحلي شرابه، وقد تواردت الأوهام علي وصرت في حيرتي على حد ما قيل، وهي حقيقة تنتزل علي :
تكاثرت الضباء على خدائش
فما يدري خدائش ما يصيد

ثم سنح لي أن أدير عليكم كأس في محادثتكم عن مسقط رأسي، فإن نفس كل شخص ميالة بالطبع إلى وطنه، وحب الوطن من الإيمان.
كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدا لأول منزل

ولست بمكثر عليكم في إطرائي لمدينة فاس التي اخترت أن أجعلها موضوع مقالتي هذه، فإنها أشهر من أن أصفها لكم، ولكن أستألفت نظركم منذ أسست إلى الآن، وما صارت عليه من غير تطويل، فلقد أسسها المولى أبو العلاء إدريس (1) بن إدريس في موضعها الذي اختار موقعه بما شاهده من كثرة المياه النابعة حولها، ووادي الجواهر الذي تحذر بين شعابها، فكان موقعها في قلوب من معه في غاية الاستحسان،

وقد اختلفت المشارب بعد ذلك فيها على حساب الأذواق، وأنا أميل إلى مدح وطني مستحسننا
ما قاله أبو الفضل ابن النحوي (2) فيها :

يا فاس منك جميع الحسن مسترق
هذا نسيمك أم روح لراحتنا
أرض تخللها الأنهار داخلها
وساكنوك أهنئهم بما رزقوا
وماؤك السلسل الصافي أم السورق
حتى المجالس والأسواق والطرق (3)

وكان اختطاطها غرة ربيع النبوي عام 192هـ، وهو ما رمز عليه من لم يوافق مشربها
بلفظة (قبض) لما يعترى ساكنها من الإنقباض، حتى صارت تسمى بسهب الحزن لكثرة الأحزان
التي تعترى قاطنها، وفي الحقيقة إنها السهب الحزن، بمعنى السهب السهل، أما القبض والحزن
الذي يعترى من لم يذق حلوة مشربها فموجبه تباعد الغرباء عن أوطانهم فيها من أهل القيروان
والأندلس، ممن كان مع مؤسسها، ثم من حل فيها ممن كانوا في شوق عظيم إلى أوطانهم التي لم
يروا أحسن منها في نظرهم ولو كانوا في النعيم المقيم.

ولقد كان المقصود الأهم للمولى إدريس تأييد المشروع الذي كان والده قائما به من نشر دعوة
الإسلام في الآفاق، والإستعانة على ذلك بالسعي في جلب العلماء من بلاد القيروان والأندلس،
وتم الأمر له بزرع حب الحب في القلوب بواسطتهم، وبأخلاقه التي سلب بها النفوس، وطاطأت
له بها الرؤوس، وكان الغالب في سياسته استعمال الرفق بدلا عن استعمال الشدة، وبعده تطورت
سيرة الملوك في أطوار وأدوار، ولم يزل الإعتناء منهم بالعلماء حتى بلغ العلم الشأو الذي وقف
موقف التمام، ثم رجع القهقري على حد ما قيل :

إذا تم شيء بدأ نقصه
ترقب زوالا إذا قيل تم

ولقد كانت مدينة فاس للناس منبع العلم حتى كانت تعتبر كمدرسة عمومية يكفي في عالمية
الشخص أن ينسب لها، بما لا ينازع فيه إلا من لا يعترف بالحق لأهله، والفضل في ذلك لأهل
القيروان وأهل الأندلس وبعض الحجازيين الواردين من أقطارهم في أول إنشاء دولة الأدارسة
وبعد ذلك، وكان المسجد المقصود لإلقاء العلوم وتلقيها مسجد القرويين ومسجد الأندلس
المعروفين بهذه المدينة.

(2)

:

513

95 643 552
365 126 9
.247 8 349
.553 (3)

وكان تأسيس القرويين في فاتح رمضان المعظم عام 245هـ، بتوفيق الله لأم البنين فاطمة بنت محمد الفهري القيروانية(4)، وبعدها وقع تأسيس مسجد الأندلس(5)، ولكن قد اشتهر جامع القرويين بما لم يشتهر به غيره من مساجد فاس، من تحصيل الفتح في العلوم لمن قصد الأخذ فيه عن المعتنين بالتعليم فيه من قديم، وكان مقصودا للناس من سائر الأقطار، وقد تقلب المعلمون فيه في أطوار، ودار دولب التعليم فيه في أدوار، على حسب كل دولة وشغفها بالعلم وأهله، حتى تعددت المدارس والمساجد، واتسعت جامعة القرويين مع اتساع المدينة لكل شارذ ووارد، وكان الغالب فيمن قصد كلية القرويين تحصيل الدراية، وهي أهم الأمور دون الرواية، إلا ما قل من أفراد الأعلام ممن اقتبسوا من مشكاة المشاركة، فجمعوا بين الدراية في العلوم، والرواية عن الخصوص والعموم، وأكثر ما كان يتعاطاه طلبة العلم بها علوم الدين أصولا وفروعا، ثم انخرط في طبقاتهم طلبة الأدب وفنونه، واستقل العلم فيها على اختلاف أنواعه بالقدامين إليها وإلى الإيالة المغربية من جالية الأندلس، وكثر إحداث المدارس والمدرسين في المساجد التي كثر تعدادها بما يناهز أربع مائة مسجد، وجلها عامر في غالب الأوقات بالطلبة.

وغالب العلوم التي كانت تقرأ بالقرويين من العلوم المتداولة بها علم التفسير والحديث وأصول الدين وفروعه مما يتعلق بالعبادات والأحكام الشرعية، أما غير هذه الفنون فكان يتداول في المساجد الصغيرة خارج القرويين، فكانت علوم الأدب باختلاف أنواعها من بيان وقسمة ونحو، وما هو منوط به من تصريف واشتقاق وحفظ اللغة باصطلاحها وغير ذلك كله مما يدرس خارجها، مثل العروض وقرض الشعر ونحو ذلك من حساب، وما يندرج تحته من هيئة ومساحة وتنجيم وغير ذلك من العلوم الممدوحة والمذمومة شرعا، فكان الناس في شغف عظيم في اقتناء كل علم وفن، بحيث كان ذلك منهم في أهمية كبرى من أن ينسب لهم الجهل بشيء،

(4)

35

859	30	245		
45			52	
			.132	5
			245	(5)
			()

.78

وقد أشرت في نظمي المسمى بنفع العموم إلى نحو خمسة وأربعين علما(6)، مما هو محصل
من العلوم التي كانت تدرس بالقرويين وغيرها، ومطلعه :
خذ العلوم وإن كسلت عن عمل فالعلم من أكمل الأوصاف في الرجل
لا يستوي عالم وجاهل أبدا ولو بلا عمل أحرى مع العمل

إلى آخره في نحو 200 بيت، ثم تطور التعليم في أطوار، وصار العلم في نقص بانقراض
العلماء وبرودة همم الناس في تلقي العلوم الرقيقة، وهي التي كانت تقرأ خارج القرويين، وظهر
سر الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم : إن العلم لا ينتزع انتزاعا، وإنما ينتزع بقبض
العلماء(7)، فأما العلوم التي قل العارفون بها أو ذهبت رأسا فهي على قسمين : علوم نافعة
كالطب(8) وما انضاف إليه، ولم يبق منه إلا مجرد تجاريب عند العجائز ونحوهن ممن يتعاطاه
على حسب التجربة، حتى جاءت الدولة الفرنسية فأنشأت المستشفيات على الطراز الجديد،
بمديد مساعدة أميرنا مولاي يوسف أطل الله بقاءه.

وقد أحيا الله به علم التفسير لكتاب الله العزيز، الذي انقطع منذ زمان بما كان راسخا في
الأذهان من التطير من قراءته، بعدم وجود كفاءة الذين يشتغلون به، وخشية التجاسر عليه بالقول
بالرأي، ووضع الآيات في غير موضعها، وقد زالت هذه الفكرة، ولكن انفتح الباب في وجه
العامة بحضورهم في مجالس بعض المفسرين والمحدثين، فصدع جلهم بالتمذهب بما يفهمونه،
وكادت البلوى أن تعم بادعاء الإجتهد في حق جل من خاض في التفسير والحديث منهم، ونشأت
أفكار الشيبية العصرية على هذه الحالة، فاعتقد جلهم بأن من خالف ما يفهمون فقد خالف الكتاب
والسنة، وعدوه مبتدعا ولو تقلد بأحد المذاهب الأربعة، وهذا حال غالب الراضين عن أنفسهم،
المدعين للتحصيل، بإجمال وتفصيل، مع أنه قيل :

علمت شيئا وغابت عنك أشياء قل للذي يدعي في العلم معرفة

وقد صار حزب ادعاء الإجتهد يتقوى تبعا لمن تظاهر به في المشرق في هذا العصر، والله
غالب على أمره، وأما العلوم الغير النافعة فهي علوم السيميا بأنواعها ونحوها، وجلها لا يخوض
فيه إلا الأفراد من الطلبة الذين يحتالون على الناس في الإستيلاء على عقولهم ليتوصلوا لما
بأيديهم، مثل تعاطي علم النار المعبر عنه بعلم الإكسير والتدبير والكيمياء، وقد كان للناس ولوع

85 1 (6)
.100 (7)
(8)

به من قديم، وألفوا فيه كتباً كثيرة، وأكثر من ألف فيه جابر بن حيان(9)، وقد أحسن بعضهم فيما كتبه على بعض تأليفه من قوله :

هذا الذي بعلمه
ما هو إلا كاسر
عز الأوائل والأواخر
كذب الذي سماه جابر

وكثير ممن ولعوا بهذا الفن ضاعت أموالهم في التجاريب، ووقعوا فيما لا تحمد عقباه عند البعيد والقريب، وصدق عليهم قول بعض العلماء :

قد نكس الرأس أهل الكيمياء خجلاً
إن طالعوا كتباً للدرس بينهم
تعلقوا بحبال الشمس من طمع
وكم فتى منهم قد غره القمـر
وقطروا أدمعاً من بعدما سهروا
صاروا ملوكاً وإن هم جربوا افتقروا

فكان الخائض في هذا الفن كطالب الكنوز وفتحها بالعزائم والبخور، وذلك من تضييع العمر في لا طائل، وقد أجاد القائل :

كاف الكنوز وكاف الكيمياء معا
وقد تحدث أقوام بكونهما
لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا
وما أظنهما كانا ولا وقعاً(10)

وقد نصح بعض العارفين الناس بقوله بعد ما خاض في هذا الفن وعرف اصطلاح أهله ونصه :

علوم الكيمياء لدي أجلا
إذا ما شئت تصعيداً فصعد
وقطر أدمع العينين حتى
وقل يا جابراً للكسر فاجبر
هناك تنال كنزاً ليس يفنى
من الشمس المنيرة للبصير
إلى مولاك أنفاس الزفير
يبين لك الصفاء من الضمير
بفضلك سيدي قلب الكسير
وتحمد فيه عاقبة الأمور

وهذا العلم لا اعتماد عليه في قلب الحديد والرصاص ونحوهما إلى الفضة والذهب حقيقة، وإلا فالصبغ بلونهما غير بعيد، وقد ظهرت الكيمياء الجديدة بمظهر باهر لمن تعاطاها في المدارس الحديثة لتعليم هذا الفن من غير غش ولا تدليس، ولا شك أن الخائض في فن الكيمياء القديم على خطر عظيم في دينه ودنياه.

وقد خرق سياج المروءة بتعاطي الغش الذي يستوجب به العقوبة عاجلا وأجلا. وقد قال (عليه السلام) :
من غشنا فليس منا(11).

ومثل هذا الفن الخوض في علم التصريف بالأوفاق والحروف والأسماء والآيات(12)،
والتعلق بخواص ذلك في استخدام الجن وجلب المنافع ودفع المضار ونحوها، فهي من قبيل
الفنون التي تستولي على ضعفاء العقول، ويصل بها الأفاردة المحتالون لنيل أغراضهم منهم، وقد
جعل بعض العلماء مثل هذا الفن من قبيل الشر الذي يتعين معرفته لاتقاء مفسدة مدعيه، على حد
ما قيل :

عرفت الشر لا للشر
ومن لا يعرف الشر
لكن لتوقيه
من الناس يقع فيه

وبعضهم جعله من قبيل السحر، ولكن عند العارفين ليس من قبيل السحر، فإن السحر حقيقته
منافية لذلك، وقد اندرجت تحت السحر فنون من السيميا التي نهى الشرع عن الخوض فيها، مثل
علم أحكام النجوم وخواص اقتراناتها، وعلم النريجات الذي هو خواص أعضاء الأدمي حيا
وميتا، وعلم الطلاسم التي يلاحظ فيها التجرد عن الديانة في تحصيل نتائجها، ونحو ذلك، فقد كان
بفاس بعض من يحسن ذلك، ويوجد إلى الآن بعض الجزئيات عند بعض العجائز المتمردات،
وكذلك عند بعض الخائضين في الاستطلاع على المغيبات بالتروحن، وتعاطي أسبابه باستحضار
الأرواح والإستزالات التي تضاهي التنويم المغناطيسي بكيفية لا يحتاج فيها إلى كبير مشقة،
سوى الخوض في ذلك مع متعاطيه حتى يتعلم الطريقة التي يسلكها في التصرف به، وهذا ونحوه
مما لا يتجاهر به خوفا من سلطة المخزن، وربما تظاهر به من ليس من أهله، ويتخذة وسيلة
لأكل أموال البسطاء، وليس من العلم في شيء، والعاقل من الناس المتدينين عندنا بفاس لا يميل
إلى التصديق بمن يتعاطى هذه الفنون المذمومة، ولا يقول بها ولا يعتمد عليها في شيء، ولقد
أكثرنا عليكم أيها السادة في ذكر ما لا طائل تحته، مع أن العلوم النافعة كثيرة ولا سبيل إلى
الخوض في جميعها، ولقد أحسن القائل في قوله :

لن يجمع العلم جميعا أحد
إنما العلم عميق بحرره
لا ولو مارسه ألف سنه
فخذوا من كل فن أحسنه

ولا فائدة في العلم بلا عمل إلا مجرد الخروج عن حيز ظلمات الجهل، ولكن قد يستفيد منه
من يعمل به، أما العامل على خلاف ما يعلم فهو كما قيل :

(11) 2 176
(12)

لو كنت منتفعا بعلمك مع مواصلة الكبائر

علم بأن السم صائر

ما ضر أكل السم ذا

وأقبح العلوم الفلسفة المذمومة شرعا، فإن تعلمها مضر بدين متعاطيها، لتحكيم عقله في أحكام الدين، وتقديم ما يظهر له على ما ظهر في نظر الشرع في حلة القبول، وقد أجاد من قال :
شر العلوم إذا نظرت إليه علم الفلسفة
لا خير فيما الفل أولسه وآخره سفه

وأحسن الفلسفة ما أرشد إلى تحقيق الديانة وما انبنت عليه، كالنظر في كون اللائق بالعبد أن يطيع مولاه بأجر وبلا أجر، فإن العبودية تقضي عليه بذلك، والعقل يؤيده، ومن هذا الباب قول من قال وقد أصاب :

ولا نعيم لا ولا موعده
يشكر بالطاعة من أوجده

لو لم تكن نار ولا جنة
أليس بالحق على العبد أن

ثم إنا ما ذكرناه لكم إنما هو بحسب ما تذكرناه عند إلقاء خطابي هذا بين أيديكم من هذه العلوم وحال متعاطيها بالفرويين وغيرها قديما، وقد ارتقى التعليم في مدارج التحقيق في زماننا هذا. وعمرت المدارس بالمتعلمين للعلوم والفنون، ولا زالت في تقدم تام، أما الصنائع والمصانع فقد كانت بفاس من عهد جالية الأندلس في إتقان وإبداع وعجيب استنباط واختراع، مما تمت به زخرفة الحضارة، خصوصا صنعة النجارة والحداة والبناء، وصنعة الزليج ونقش الجبص والتزويق، فقد بلغ فيها الصناعات إلى درجة تبهر الناظرين، ولا زالت من ذلك الآثار البديعة في مدارس طلبة العلم عندنا مثل مدرسة أبي عنان بالطالعة، ومدرسة العطارين وغيرهما، مما يدل على ضخامة الملوك الذين أمروا بإنشاء ذلك ومهارة الصناعات في عصرهم(13).
إن آثارنا تدل علينا
فانظروا بعدنا إلى الآثار

ثم سرى الضعف والنقص في هذه الصنائع حتى كادت أن تضمحل بذهاب العارفين بها، مع برودة الهمم في إحياء ما اندرس من الآثار منها، ولم يكن اعتناء من غالب الناس في المحافظة على ما بقي منها حتى قيض الله لإحيائها رجال البحث عن الفنون الجميلة، من رجال العلم العصري ورجال التمدن والحضارة، فحصل البحث عن الآثار المنطمسة والعارفين بالصنائع القديمة، وفتحت لذلك مصانع ومدارس، فهاهي الآن في التقدم، مع ولوع الناس في التعليم والتعلم، ولولا نفث روح الإهتمام بإحيائها من الحكومة لاندثرت.

(13)

وقد ظهر للعيان حسن هذه الصنائع التي هي على نسق الطراز الأندلسي المشوب بالذوق الفاسي في جل ما تحلى به المسجد الباريزي ومعده من حلل الرونق والجمال البديع، والفضل كل الفضل في ذلك لرئيس جمعية أوقاف الحرمين الشريفين، رئيس التشرفيات المولوية الوزير الشرفي المفوض سيدي الحاج عبد القادر ابن غبريط، زاد الله في معناه، فله الفضل في اختيار الصنائع الذين لهم النبوغ التام في صنعة الزليج ونقش الخشب والجص، وقد جاء بهجة للناظرين، ودليل ذلك المشاهدة :

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما قد حدثوك فما راء كمن سمعا

ولا أعالي إذا قلت أن هذا المظهر الذي ظهر فيه المسجد المذكور ومتعلقاته لا نظير له في الوجود من قصور الملوك في الأندلس وغيرها، وما أرى ينازع في هذه الفكرة إلا جاحد حسود، أو جاهل في حيز الجماد معدود، وهاهو الآن المسجد مع متعلقاته، أبوابه مفتوحة، وما على الناس إلا أن يزوروه، ويروا جنة الدنيا كيف شيد فيها ما عد من البناءات الباهرة الباهضة، وقد توجت دائرة الزليج بصحن المسجد المذكور بقصيدة وأبيات قد أنشأتها باقتراح رئيس جمعيتنا المذكور، ولم يبق على حافظتي سوى بيتين أنشأتها لينقشا على باب الحمام هناك وهما :

إن هذا الحمام يشفي السقيما وبه يشتهي الذي يستقي ما
فارو من مائه صحيح بخار وانتهج منهجا له مستقيما

أما القصيدة فهي تزيد على السبعين بيتا، وقد حفظت بالنقش هناك بالخط الأندلسي المجوهر، وسنتشر عما قريب على أعمدة السعادة الغراء، أو على أعمدة النجاح الأغر، مع الأبيات المنقوشة داخلا وخارجا، وهي من إنشائي(14)، وذلك من تخليد الذكر لأهل الأدب والثناء عليهم بالسنة البيان، فعليكم أيها السادة بالأدب والتضلع من مشاربه العذبة، ولا تكتفوا بما حصلتم عليه من المعارف، فإن القناعة من الله حرمان.

ولنشكر الدولة التي مدت لنا يد المساعدة على إحياء مثل هذه الصنائع التي لازالت في التحسين المضاهي للطراز القديم، الذي كاد أن يضمحل إجمالا وتفصيلا، وكذلك غير هذه الصنائع التي كانت انقرضت عندنا بفاس بانقراض العارفين بها، مثل تربية دود الحرير وغزله، فقد كانت قديما من الصنائع التي لها مدخولات ذات أهمية، وكان الحرير الفاسي من أحسن الأنواع التي تجلب من مصانع الأجانب، حتى دخل الفشل بالإكتفاء بما يرد من ذلك بواسطة تجار فاس الذين تسببوا في انحلال العزائم في الإعتناء بالحرير ومنسوجاته، وعم العامة الكسل، فصارت هذه الصناعة في حيز الإهمال حتى ذهب العارفون بها.

(14)

1926

83-77 1

وقد حصل في هذه الأزمنة الأخيرة الولوع بإحيائها بفضل همة ذوي الإصلاح من رجال الحكومة الساهرين في جلب المنافع بإحياء الصنائع، وعهدي بقومنا من أهل فاس قد حصلوا على النتائج الحسنة من إحرارهم من رئيس قسم إحياء الفنون الجميلة والصنائع تمام المساعدة بإعطائهم الإرشادات اللازمة في تربية دود الحرير، وإعطاءهم في الإبان المناسب القدر الكافي من الزريعة التي ينشأ عنها دود الحرير، مع حصة من أوراق التوت الذي يطعم لهذا الحيوان الحريري، وقد وقع الاعتناء بغرس الشجر. وحصلت نتائج كبرى من هذه الصناعة، ولا زالت في التقدم في أطوارها، ولربما يقع الإكتفاء بالحرير البلدي الفاسي عن غيره مستقبلاً إذا دام الناس في اجتهادهم في إحياء هذه الصناعة.

وهكذا غيرها من الصنائع فقد صارت تتقدم شيئاً فشيئاً بسرعة مناسبة للعصر الحاضر، بمزاحمة المعمرين وغيرهم في استعمال آلات الحرث والدراس على الطراز الجديد، بفضل التعليم الذي نشأت المدارس لأجله بفاس وغيرها، مما يحق دوام الشكر للدولة الساعية في ترقى الإيالة الشريفة، وقد اعترف الناس بفضل مزية العلوم العصرية، وصاروا يغرفون من بحار معارف رجال التعليم ما عم نفعه في الحاضرة والبادية.

وإن أهم الأمور، التي تشفي الصدور، هو السعي التام في ارتباط جميع القلوب بعضها ببعض، والنظر فيما يوصل إلى رفع المضرات الناشئة عن سوء المفاهمة الحاصل بين العامة والخاصة، وذلك لا يتم إلا بالإرشاد إلى العلم والتعليم، حتى يعم العلم ويضمحل الجهل، ولا سبيل إلى بث روح المعرفة وإنباتها في روح طبقات الناس على اختلاف أنواعهم إلا بجلب النفوس بزرع الحب لمن لهم السيطرة عليها، وهم شيوخ الزوايا ومن في شاكلتهم من مستحوذ على تلاميذ أو خدام، فإن الإستعانة بهم في نشر العلم والدعوة إلى التعلم والتعليم عائدة بالفائدة التي لا يجدها عاقل (15).

ومادام دعاة الإصلاح لم يضافحوا شيوخ الزوايا بأيدي الصلح، مع المسارعة لإصلاح ذات البين بينهم فلا طمع للترقي والتوقى من أضرار الجهل، فإن العامة لا يرددهم عن حسن اعتقادهم في الشيوخ أحد، وكل من حام حول الإعتراض على أحد منهم فهو عندهم ملحوظ بعين السخط طول الأبد،

وقد حصل من التفارقة بين الجماعات بموجب الإنكار على أهل الطرق ما تراكم من أجله ظلمات بعضها فوق بعض فوق الأفق، فكيف يسمع مرید في طريقة قيد نفسه بحبلها طعن من طعن فيها، مع كونه في حبها متفان، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : حبك للنبي يعمي ويصم(16).

ساداتي : إن غالب الإنتقادات في كل شيء لا تصدر إلا عن غرض شخصي، يتحقق بهذا من نظر بعين الإنصاف إلى موجب الإنتقادات المرة بعد المرة، ومادامت الأغراض الشخصية تقود أهلها إلى التحصيل عليها إلا والناس في انحطاط إلى مهاوي التأخر، لا تقدم لهم فيما فاتهم به غيرهم في مراقي الترقى الذي تتشوف إليه النفوس وتتشوف للحصول عليه، وإن الأغراض الشخصية لحاجز حصين بين الترقى وطالبيه، وأقل الأغراض التشوف إلى التصدر بغير استحقاق، وما من أحد أحد رضي عن نفسه إلا وسولت له طلب ما هو بعيد عنه، ظنا منه أنه هو المستحق لما يتشوف إليه من التروؤس ونحوه، سيات في هذا من خاض في العلوم الرسمية، أو كان ذا مال ييخل به، أو ينفقه في تحصيله على السيطرة على ذوي المراتب العلمية، وإن للإنسان بماله لعلوا في غلو يريد به التقدم على غيره، ولو منعه من خيره، بمقتضى : "كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى" (17)، كما أن العلم الرسمي يطغى بصاحبه الراضي عن نفسه، فلا يرى أمامه من يرضى به إمامه، ولربما رمى بنفسه في التداخل فيما لا تحمد عقباه، وجنى على نفسه وقومه ما فيه رداهم ورداه، وذلك دأب كل من تتبع هواه.

ساداتي : إن ناديا مثل ناديكم هذا لخليق أن يصدع فيه زائره بالحقيقة من غير مداخل في الفضول، وحسب العالم الموفق أن يشير بلسان النصح للعموم أن يقبل الناس على التعلم للعلم وتعليم الصنائع التي تعود بالمنفعة على وطنهم العزيز. والحكيم من أحكم الأشياء بعد سلوكه على نهجه القويم حتى حصل على الحكمة ووضعها في موضعها عملا بما ورد : لا تمنحوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوا أهلها منها فتظلموهم. فمراعاة القابلية في المكان والزمان تعد من نفس حكمة الحكيم. ولقد أحسن الإمام الشافعي رضي الله عنه في قوله :

سأكنتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي	ولا أنثر الدر النفيس على الغنم
وإن يسر الله الكريم بفضلته	وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
بتنت معيدا واستفدت ودادهم	وإلا فمخزون لدي ومكتنم
فمن منح الجهال علما أضاعه	ومن منع المستوجبين فقد ظلم

والعاقل من يجتنب ما أمكنه ما تتطرق إليه الألسنة برميته بسهام الظنون، ورجمه بالغيب بما يستهون دونه ريب المنون، فلا يسقي غيره بما لا يشربه، لأنه لا محالة سيتجرع ما سقاه أحب أم كره، وقد قيل :

(16)

117 1

.7 :

(17)

أنت بما قد سقيت شارب
سهمك للغير فيك صائب

من رائق كان أو كدر
مالك عن نصله مفر

حتى قال :

ثمار ما قد غرست تجني
خذ الحديث الصحيح عني

وهذه عادة الزمان
كما يدين الفتى يدان

وقال شاعر من العرب :

ومن يحفرن بيرا يريد بها أخا
كذاك الذي يبغي على الناس ظالما

ففيها لعمر الله من دونه يقع
تصبه على رغم عواقب ماصنع

ولهذا لا يكون المسلم مسلما حتى يكف أذاه عن غيره بمقتضى : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه، وبهذا يحصل الإصلاح، ويتم في سائر مساعي النجاح، ولا يخفى عنكم أن المصائب الجمة التي تتخطب فيها كل أمة منشؤها الجهل، وإن الجهل لمانع من التقدم والترقي، وهو أقوى باعث على الشقاق والشقاء، قاعد بقومه على جرف هار لا تقوم لهم قائمة، ماداموا لم يتداركوا الخطر المحدق بهم بالإنكباب على التعليم والإرشاد إليه في الحواضر والبادي، مع استعمال الرفق واللين في بيان الصواب والخطأ، وصرف همة الأغنياء في إعانة الضعفاء، وصرف أموالهم بتأسيس الجمعيات الخيرية التي تتكفل بنفقات اليتامى وأبناء الفقراء، لينتأى لهم الإنكباب على تحصيل الدروس العلمية ومعرفة الصنائع التي تعود عليهم وعلى شعبهم بالخير العميم، وذلك من واجب الأخوة الإنسانية، فأحرى أخوة الدين بين المتدينين.

ولا يخفى عنكم أيضا أن الروابط الإجتماعية التي بها تربط القلوب، وتتم بها المقاصد في كشف الكروب، وتحصل بها السعادة من ثلاثة أمور : رابطة قومية، ورابطة وطنية، ورابطة دينية، وهذه الرابطة الأخيرة عند المومنين هي السبب الوحيد في سعادة الدنيا والآخرة، وهي أقوى الروابط وأتمها نفعا في الهيئة الإجتماعية، لانفعال النفوس بها مع الميلان الكلي بالقلب والقالب بين المتدينين، رغم تباعد أقطارهم واختلاف أنسابهم، وتباين مقاصدهم وتنوع لغاتهم، فهم على كل حال إخوة في الدين، وأما الرابطة القومية والوطنية فقد تزول بسوء حال أو انتقال، والمسلم الحقيقي يتعين في حقه أن يكون مسلما دينيا، لا مسلما وطنيا، ويبرهن على دينه النقي بالتباعد عما نهاه الشرع عنه، فإن الشارع حكيم، وما نهى عن شيء إلا وكان ذلك الشيء مما لا خير فيه ويعود بالوبال على فاعله.

إخواني : إن التعصب الوطني قد يفضي بصاحبه إلى رفض الدين، ويقضي بهدم بعض القواعد المشيدة على أساس التقوى والحق المبين، على أن الوطن وإن كان بالطبع محبوبا فينبغي أن يكون حبه متابعا للحق من غير تعصب في الدين أيضا، ولست أدعو إلى بغض الوطن الذي لم تنتهك فيه حرمة الدين، فديننا الإسلامي دين الألفة والإئتلاف والإيلاف، وهو الموافق كل الموافقة على ترك التنافر والتدابير والنقاط ونحو ذلك من كل ما يؤدي إلى الخلاف والعنف، ويعلم هذا كل من اطلع على ما كانت عليه سيرة الرسول عليه السلام، وسيرة خلفائه ومن اقتفاهم من الخلف الصالح رضوان الله عليهم، فإن من تتبع سيرهم الحميدة ونظر إليها بعين الإنصاف يشاهد ما تقر عينه به ويدعوه بداعية العناية إلى التمسك بحبله المتين، ويزداد به المومن إيمانا كل حين.

إخواني المومنين : إن ارتكاب ما يخالف الدين يفضي إلى ما لا تحمد عقباه، خصوصا عند من تربوا في الإسلام وكان آباؤهم وأجدادهم من المسلمين، فإن العار كل العار عليهم في التظاهر بمظهر غير المسلمين، بما تسوله لهم نفوسهم، مثل تعاطي الربا، والله يقول : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مومنين، فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله(18)، ومثل تناول أم الخبائث وشربها، وتعاطي القمار الذي لا يتجاهر به إلا غير المومنين، والله يقول : "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجز من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون"(19)، ومثل الانتقاد على الصوفية بالتضليل والتكفير، ومعاداتهم تبعا للهوى بدعوى الانتصار للكتاب والسنة، والنبى صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عن ربه تبارك وتعالى قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبد بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولإن سألني لأعطينه، ولإن استعاذني لأعيذنه، فنسأل الله تعالى من فضله أن يوفقنا لما فيه رضاه، وبسلك بنا وبكم مسالك النجاة إلى يوم لقاءه، وقد حبب إلى أن أتشدكم هنا أبياتا أنشأتها في الحث على تعلم العلم والصنائع، والسعي إلى نيل المنافع، ونصها :

فكيف ينجح وهو راح مذموما
ورام نفع عموم كان مغموما
إعراضنا عن مديد الخير منقوما
والنصح أضحى من النصاح ملغوما
واستهضوا همما تسر مهموما
مع اتخاذهم المجهول معلوما
وربما صرت فيما قلت مشتوما
كلمتكم وفؤادي صار مكلوما
مادام جانبكم بالجهل مهضوما
فإنه لا يزال منه محروما
وقد طغى الجهل حتى صار مخدوما
وقد شربتم شراب الجهل مسموما
به غدا ظالما وكان مظلوما
فقد غدا جهلنا يا قوم معلوما
زمانكم وسواكم صار منهوما
وإن غدا من عظيم الكيد محموما
وصار في حقكم والله محتوما

أقصى منى الشخص أن يكون مخدوما
من لي بشخص بحظ الشخصيات رمى
فقد أضرت بنا أغراضنا ونرى
يا قوم هل تسمعون إن نصحت لكم
يا ليت قومي قاموا من سبائهم
فليس ينفعهم سوى اتحادهم
أقول قولي لم أعتب على أحد
ويلي عليكم وويلي منكم فلقـد
لا تعجلوا في طلاب كل حـقكم
فكل من رام شيئا قبل أزمنه
والجهل جيش بغى يمن به اتصفوا
ويلي عليكم إذا عشتم بجهلكم
وأظهر الكل ما قد رام من خـور
فنبهوا قومكم لنيل معرفة
ماذا يعوقكم عن التـعلم في
ما كاد يشبع من علم ومن عمل
وإن تعليمكم خير لكم ولهم

(18) : 279.

(19) : 90.

وإن جهلكم لو يعلمون لهم
سيروا قواما بلا خلف لمقصدكم
فنظموا شركات في تجارتكم
ولتخرجوا كنز أرضكم لتنتفعوا
وزاحموا غيركم بكل مخترع
ونظموا لبنيتكم خير مدرسة
من المحال رقي القطر بينكم
هذه المصانع تدعوهم ليكتسبوا
قوموا لإحراز ما ترضاه دولتكم
إن يرفقوا بكم فالرفق ينفعهم
يسقي بمثل الذي يسقي سواه به

شؤم ولا خير فيمن كان مشؤوما
مع اتحاد بجمع عد منظوما
ولا تطيلوا قعودا كان مذموما
بما تضمنه إذ صار مردوما
لنيل خير لهم قد صار مضموما
إن المدارس تعلي العرب والروما
إن لم يكن في بنيه العلم ملزوما
منها صنائع خير صار مفهوما
أولا فمجدكم قد صار مهدوما
ومن غدا رحما يصير مرحوما
كأسا دهاقا بما يراه مختوما (20)

(20)

وفي الختام أشكر السادة الذين اقترحوا علي إلقاء هذه المسامرة، مع الشكر التام لحضرتكم أيها السادة الحاضرين، مع الدعاء لأميرنا مولانا يوسف أدام الله نصره، قاله وكتبه بمدينة الجزائر الغراء، خديم العلم والعلماء، أحمد سكيرج لطف الله به أمين. وفي يوم الخميس 22 جمادى الأولى عام 1346هـ الموافق 17 نونبر سنة 1927م.